فن القراءة الجردية

لعلك لاحظت أنه كلما أطلقت أجراس الإجازات فرحتها وجدت كثيرًا من الشباب -ولله الحمد- قد عزم علىٰ القراءة والاطلاع، وبعضهم وضع لنفسه جدولًا وعيّن كتبًا لقراءتها، وبعضهم يستشير أهل التخصصات في مقروءات يقترحونها.

والحقيقة أن من أهم المعطيات في باب العلم، وفعالية القراءة والاطلاع؛ هو أنه وبكل اختصار: (**الكتب البديعة كثيرة، والعمر قصير، والصوارف تتزايد**)، ومن تأمل هذه المعادلة أدرك أنه لا يمكن الفرار من التفكير في استثمار الوقت المخصص للقراءة إلىٰ أقصىٰ ما يمكن تحقيقه من الأرباح المعرفية.

ومن وسائل استثمار (وقت القراءة) ما يسمىٰ بـ(**قراءة الجرد**) وهي المطالعة السريعة للكتاب بحيث يلتقط القارئ من خلالها: هيكل الكتاب، وأسئلته الرئيسية، ومظان المسائل فيه، والتصورات العامة في الكتاب.

ويحدد من خلال هذا الجرد: ما مدىٰ احتياجه للكتاب؟ ثم

Twitter: @ketab_n

أين يقع بالضبط موضع الحاجة منه؟ حتىٰ لا يتورط بصرف قراءة دقيقة تحليلية لكتاب قد يكتشف بعد الانتهاء منه أنه كتاب هش ضيّع وقته، أو لا يتلاقىٰ مع احتياجاته، أو يكتشف أن المفيد من الكتاب هو الفصل الفلاني فقط، الخ. فمثل هذه الأمور لا يستطيع أن يحددها من يبتدئ الكتاب بقراءة دقيقة قبل قراءة الجرد، حيث تمثل قراءة الجرد (قراءة استكشافية مسبقة)، وهذه القراءة السريعة ليست **(تصفح عشوائي)** بل هي **(تصفح منظم)**، والتمييز بين التصفح العشوائي والمنظم هو أحد التميزات الهامة في فن القراءة كما سيأتي التنبيه عليه.

والمراد أن الانخراط في **القراءة التفصيلية** للكتاب، قبل عملية **التصفح المنظم**، نوع من الغرر المعرفي، وهو يشبه ركوب المجاهل قبل تصفح الخريطة.

والقراءة الجردية كانت أحد أهم الأنماط الشائعة للقراءة لدىٰ سلفنا، بجانب أنماط أخرىٰ للقراءة طبعًا، كقراءة الضبط والتصحيح والتأمل والاستظهار والحفظ الخ، وأخبارهم في القراءة الجردية منتشرة مبثوثة في كتب التراجم، ولكن بعض أهل العلم جمع نماذج من ذلك، ومن أهم من خصص فصولًا أو استطرادات جمع فيها هذه النظائر: المقري التلمساني (ت١٠٤١هـ) في كتابه: فتح المتعال في مدح النعال، والمحبي (ت١١١١هـ) في كتابه: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، وجمال الدين القاسمي (ت١٣٣٢هـ) في كتابه: قواعد التحديث من فنون مصطلح

Twitter: @ketab_n

الحديث، وعبد الحي الكتاني (ت١٣٨٢هـ) في كتابه: فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات.

فأما المقري التلمساني (ت١٠٤١هـ) فإنه لما ذكر خبر قراءة الفيروزآبادي لصحيح مسلم في ثلاثة مجالس، وخبر قراءة القسطلاني لصحيح البخاري في خمسة مجالس، قال بعد ذلك (**ومما هو من هذا القبيل في السرعة . .**)[1] ثم استرسل في رواية بعض أخبار السرعة في القراءة والمطالعة.

وأما المحبّي فإنه لما ترجم لأبي بكر باعلوي الشلي وذكر سرعة قراءته قال (**حُكِي عن بعض الحفاظ ما هو أعظم من هذا . .**)[2] ثم استعرض بعض أخبار الأئمة في سرعة القراءة.

وأما القاسمي فقد عقد فصلًا في كتابه قواعد التحديث في ثنايا الباب التاسع قال فيه (**ذِكر أرباب الهمة الجليلة في قراءتهم كتب الحديث في أيام قليلة**)[3] ثم ساق عددًا من الأخبار.

وأما **الكتاني** فقد نقل كلام ابن حميد -صاحب السحب الوابلة- عن شيخه السنوسي وقراءته لكتب الحديث في أيام قليلة، ثم علّق الكتاني مستطردًا بقوله (**وعلىٰ ذِكر سرعة القراءة، والصبر**

---

(١) المقّري، **فتح المتعال في مدح النعال**، تحقيق علي عبد الوهاب وزميله، دار القاضي عياض، ص(٥٢٧).

(٢) المحبي، **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر**، تحقيق محمد إسماعيل، دار الكتب العلمية، ص(١/ ٩١).

(٣) القاسمي، **قواعد التحديث**، تحقيق مصطفىٰ شيخ، مؤسسة الرسالة، ص(٤٥٢).

Twitter: @ketab_n

على السماع . .)[1] ثم ساح قلم الكتاني في ذكر أخبار أهل العلم في قراءة الجرد السريعة.

وسأنقل هاهنا بعض النماذج التي نبّهت لها المصادر السابقة، ونحوها مما مرّ بي، ليطلع القارئ على نماذج من القراءة الجردية عند سلفنا، فمن هذه الأخبار:

- في كتابه الشهير تاريخ بغداد ترجم الخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ) للمحدث إسماعيل الحيري، وكان إسماعيل هذا يختص بميزة إسنادية، وهو علو إسناده في رواية صحيح البخاري، حيث يرويه عن الكشميهني عن الفربري عن البخاري، ولما أراد الحيري السفر من نيسابور إلى مكة للحجّ، مر ببغداد إذ كانت على طريق سفره، لكن حملة الحج تعثرت لظروف أمنية، فعزم على الرجوع لنيسابور، فانتهز الخطيب البغدادي الفرصة، وقرأ على الحيري صحيح البخاري كاملًا في مدة استثنائية، حيث يروي الخطيب البغدادي القصة بنفسه قائلًا:

(إسماعيل الضرير الحيري من أهل نيسابور، قدم علينا حاجًا في سنة ثلاث وعشرين وأربع مائة . . ، كتبنا عنه، ونعم الشيخ كان فضلًا وعلمًا، ولما ورد بغداد كان قد اصطحب معه كتبه عازمًا على المجاورة بمكة، وكانت وقر بعير وفي جملتها «صحيح البخاري»، وكان سمعه من أبي الهيثم الكشميهني عن الفربري، فلم

(١) الكتاني، **فهرس الفهارس والأثبات**، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب، ص(٢/ ١٠٤٤).

Twitter: @ketab_n

يُقضَ لقافلة الحجيج النفوذ في تلك السنة لفساد الطريق، ورجع الناس، فعاد إسماعيل معهم إلىٰ نيسابور، ولما كان قبل خروجه بأيام خاطبته في قراءة كتاب «الصحيح،» فأجابني إلىٰ ذلك، فقرأت جميعه عليه في ثلاثة مجالس، اثنان منها في ليلتين، كنت أبتدئ بالقراءة وقت صلاة المغرب وأقطعها عند صلاة الفجر، وقبل أن أقرأ المجلس الثالث عبر الشيخ إلىٰ الجانب الشرقي مع القافلة ونزل الجزيرة بسوق يحيىٰ، فمضيت إليه مع طائفة من أصحابنا كانوا حضروا قراءتي عليه في الليلتين الماضيتين، وقرأت عليه في الجزيرة من ضحوة النهار إلىٰ المغرب، ثم من المغرب إلىٰ وقت طلوع الفجر، ففرغت من الكتاب، ورحل الشيخ في صبيحة تلك الليلة مع القافلة)[1].

وقد تناقل العلماء هذه الواقعة للخطيب البغدادي، وكتبوها بحبر الدهشة، وشرقت كلماتهم بالانبهار، حتىٰ أن الذهبي ذكر هذه القصة في كتابه «سير أعلام النبلاء» ثم عقّب الذهبي بعدها بقوله (قلت: هذه والله القراءة التي لم يسمع قط بأسرع منها)[2]، كما نقل الذهبي القصة ذاتها في كتابه الآخر «تاريخ الإسلام» ثم قال (وهذا شيء لا أعلم أحدا في زماننا يستطيعه)[3].

وقد صدق الذهبي، فإن صحيح البخاري في طبعته بالحروف

---

(١) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، تحقيق بشار عواد، دار الغرب، ص(٧/ ٣١٧).

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، إشراف شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ص(١٨/ ٢٨٠).

(٣) الذهبي، تاريخ الإسلام، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب، ص(١٩/ ١٨٢).

Twitter: @ketab_n

العادية يقع في أربع مجلدات، فكيف قرأه الحافظ الخطيب البغدادي علىٰ شيخه الحيري في ثلاثة أيام؟! هذه الواقعة فيها شاهد لسرعة وطلاقة القراءة، وشاهد آخر لا يقل عنه وهو الجلد والدأب وصلابة التحمل والصبر علىٰ المطالعة.

-ويعرف المتابعون لتاريخ الفقه أن رأس علماء المالكية في القرن السادس هو القاضي عياض اليحصبي (ت ٥٤٤هـ)، وله مهابة في نفوس المالكية، وأقيمت للتنويه به مؤتمرات معاصرة متعددة، والقاضي عياض له كتاب أشبه بمعاجم الشيوخ علىٰ طريقة المحدثين، سمّاه «الغنية»، ذكر فيه أشياخه الذين سمع منهم وشيئًا من أخبارهم، وهذا الكتاب مصدر عزيز اعتمد عليه المؤرخون ممن جاء بعده، ومن أشياخ القاضي عياض الذين سمع منهم وترجم لهم في هذا الكتاب ابن النخاس، وقد قال عنه: **(أبو القاسم ابن النخاس، زعيم المقرئين بقرطبة . . ، حدثني بـ«رسالة ابن أبي زيد»، بقراءتي عليه، في مجلس واحد، في داره بقرطبة)**[1].

ورسالة ابن أبي زيد (ت٣٨٦هـ) مرجع مركزي في الفقه المالكي طُبِعت في مجلد[2]، وطُبِعت لها شروح عديدة، وتأمل كيف جردها القاضي علىٰ شيخه في مجلس واحد.

-ولما استعرض الحافظ أبو سعد السمعاني (ت٥٦٢هـ)

---

(١) القاضي عياض، **الغنية**، تحقيق ماهر جرار، دار الغرب، ص(١٤٧).

(٢) ابن أبي زيد، **الرسالة الفقهية**، وبحاشيتها: غرر المقالة في شرح غريب الرسالة للمغراوي، تحقيق د. الهادي حمّو وزميله، دار الغرب.

Twitter: @ketab_n

شيوخه في معجمه المعروف، عرض لذكر شيخه أبي الفتح الولوالجي، وقال عنه: (**لما رجعنا إلىٰ سمرقند سألته -أي شيخه الوالوالجي- يومًا الحضور عندنا، لنقرأ عليه الكتاب -أي كتاب الشمائل للترمذي-، فحضر، وقرأنا عليه جميع الكتاب في مجلس واحد**)[1].

وكتاب الشمائل للترمذي مطبوع في مجلد واحد، وقد اجتمعوا وقرؤوه في مجلس واحد!

-وتواطأ المترجمون لابن تيمية ممن شاهدوه وشافهوه، ثم من روىٰ عن هذه الطبقة، علىٰ التعجب من أمرين في شخصية ابن تيمية: سرعة قراءته وسرعة كتابته، وقد صوّر الذهبي تفاصيل شخصية ابن تيمية في مسرد طويل حتىٰ كأنك تراه، وجاء من ضمن وصفه أن قال الذهبي عن ابن تيمية (وكان الشيخ .. سريع القراءة)[2].

وقال ابن عبد الهادي عن ابن تيمية (وقرأ الغيلانيات في مجلس)[3] والغيلانيات طبعت في مجلد[4]، وتقع صفحاتها في

---

(١) السمعاني، **المنتخب من معجم شيوخه**، تحقيق د. موفّق عبد القادر، نشرة جامعة الإمام محمد بن سعود، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٧هـ، ص(٢/ ١٠٦٣).

(٢) الذهبي، **ذيل تاريخ الإسلام**، تحقيق مازن باوزير، دار المغني، ص(٣٢٩).

(٣) ابن عبد الهادي، **طبقات علماء الحديث**، تحقيق أكرم البوشي وزميله، مؤسسة الرسالة، ص(٤/ ٢٨٢).

(٤) البزاز، **الغيلانيات**، تحقيق فاروق مرسي، دار أضواء السلف.

Twitter: @ketab_n

حدود (٣٥٠) صفحة، وتتضمن (١١٠٤) حديث، وهي من أعلىٰ كتب الحديث إسنادًا، وتلاحظ أن ابن تيمية قرأ هذا الكتاب في مجلس واحد!

ووصف الصفدي سرعة كتابة ابن تيمية فقال (**وكان ذا قلم يسابق البرق إذا لمع، يملي علىٰ المسألة الواحدة ما شاء من رأس القلم، ويكتب الكراسين والثلاثة في قعدة**)[١].

وذكر ابن رجب نموذجًا للكتب التي كتبها ابن تيمية بسرعة فقال (**قلت: وقد كتب «الحموية» في قعدة واحدة، وهي أزيد من ذلك، وكتب في بعض الأحيان في اليوم ما يبيض منه مجلد**)[٢].

والحموية طبعت في مجلد، وهي أحد أهم الكتب الأصول في دراسة عقيدة أهل السنة، وهي غزيرة بالحجج والنصوص، وكثيرًا ما يستغرق تدريسها في المساجد زهاء سنة، وقد كتبها في جلسة واحدة رحمه الله.

-وحين ترجم الحافظ تقي الدين ابن فهد في ذيله علىٰ تذكرة الذهبي وذيلها للحسيني، ذكر من جملة المترجَمين الحافظ أبا الفضل العراقي (ت٨٠٦هـ)، وذكر رحلاته للسماع، وروىٰ فيها أحوالًا تشهد فعلًا بسرعة قراءة الحافظ العراقي رحمه الله، فمن ذلك قول ابن فهد:

---

(١) الصفدي، **أعيان العصر**، ص(١/ ٢٣٥).

(٢) ابن رجب، **ذيل طبقات الحنابلة**، ص(٤/ ٥٠١).

Twitter: @ketab_n

(وابن الخباز محمد بن إسماعيل قرأ عليه -أي العراقي- صحيح مسلم في ستة مجالس متوالية، قرأ في آخر مجلس منها أكثر من ثلث الكتاب، وذلك بحضور الحافظ زين الدين بن رجب، وهو يعارض بنسخته)[1].

-وجاء في ترجمة الفيروزآبادي (٨١٧هـ) صاحب «القاموس» أنه قرأ بدمشق، علىٰ ناصر الدين بن جهبل، صحيح مسلم، في ثلاثة أيام، ثم أنشد:

قرأت بحمد الله جامع مسلم
بجوف دمشق الشام جوفًا لإسلامِ
علىٰ ناصر الدين الإمام ابن جهبل
بحضرة حفاظٍ مشاهير أعلامِ
وتم بتوفيق الإله وفضله
قراءة ضبط، في ثلاثة أيامِ[2].

وصحيح مسلم كما يعرف القراء الكرام في طبعته بالحروف العادية يقع في أربع مجلدات، فانظر كيف قرؤوا هذه المجلدات

---

(١) ابن فهد، **لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ**، مطبوع مع ذيل **تذكرة الحفاظ** للحسيني، دار الكتب العلمية، ص(٢٢٣)، وقارن بـ: **قواعد التحديث** للتهانوي ص(٤٥٣)، **فهرس الفهارس** للكتاني ص(٢/ ١٠٤٨)

(٢) السخاوي، **الضوء اللامع**، دار الجيل، ص(١٠/ ٨٠)، وانظر: **أزهار الرياض** للمقري (٣/ ٤٨)، **وشذرات الذهب** لابن العماد (٩/ ١٩٢) فبين النصّين اختلاف في ضبط بعض ألفاظ الأبيات، والله أعلم بالصواب.

Twitter: @ketab_n

الأربع، قراءة ضبط، في ثلاثة أيام! وبصوت مسموع وليست فقط قراءة خافتة تسترق الحروف!

وقد نقل المقّري -أيضًا- هذه القصة متعجبًا، وصدّرها بقوله **(ومن أغرب ما منح الله تعالىٰ المجد مؤلف القاموس . .)** ثم ذكر القصة السابقة، ثم بعد أن انتهىٰ من سرد القصة عقّب عليها بقوله **(فسبحان المانح الذي يؤتي فضله من يشاء)**[1].

-وفي واحد من عيون كتب التراجم، وهو كتاب الحافظ السخاوي الذي سمّاه (الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر)، وشرح فيه السخاوي أحوالًا علمية في غاية الفرادة والإبهار لشيخه الحافظ ابن حجر (ت٨٥٢هـ)، ومنها منجزات ابن حجر العلمية أثناء رحلاته، إلىٰ قوص والإسكندرية والحجاز واليمن والشام، وما أبدعه خلال ذلك من المطالعات والمؤلفات والتعليقات، وكانت قائمة مذهلة من الأعمال العلمية، ثم عقّب السخاوي بعد ذلك بتفسير هذه القدرة الاستثنائية لهذا الإنجاز، فقال:

(وأعانه علىٰ كل هذا أمور يسّرها الله تعالىٰ له، قلّ أن تجتمع في غيره، منها: سرعة القراءة الحسنة، فقد قرأ السنن لابن ماجة في أربعة مجالس، وقرأ صحيح مسلم بالمدرسة المنكوتمرية علىٰ

---

(١) المقري، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تحقيق مصطفىٰ السقا وزملائه، مطبعة فضالة، ص(٣/ ٤٨).

Twitter: @ketab_n

الشرف أبي الطاهر الربعي في أربعة مجالس، سوىٰ مجلس الختم، وذلك في نحو يومين وشيء، فإنه كان الجلوس من بكرة النهار إلىٰ الظهر، وما وقع لصاحب الترجمة -أي ابن حجر- في قراءة صحيح مسلم أجلّ مما وقع لشيخه المجد اللغوي صاحب القاموس، وكذا قرأ كتاب النسائي الكبير علىٰ الشرف المذكور في عشرة مجالس كل مجلس منها نحو أربع ساعات، وأسرع شيء وقع له أنه قرأ في رحلته الشامية معجم الطبراني الصغير في مجلس واحد بين صلاتي الظهر والعصر، وهذا الكتاب في مجلد يشتمل علىٰ نحو ألف وخمسمائة حديث، ومن الكتب الكبار التي قرأها في مدة لطيفة «صحيح البخاري»، حدّث به الجماعة من لفظه بالخانقاه البيبرسية في عشرة مجالس، كل مجلس منها أربع ساعات . .)[1].

- ومن أشهر شروح صحيح البخاري شرح العلامة شهاب الدين القسطلاني (ت٩٢٣هـ) وهو يعتني بضبط اللفظة ومعناها علىٰ الاختصار، وفيه ميزة عظيمة إذ يدرّب قارئه علىٰ العلم بأسماء رجال الحديث وضبطها فهو يكرر إيضاح الاسم في كل موضع يتكرر، فلا يخرج منه قارئه إلا ورجال البخاري كأنهم أهل حيّه، وربما تدخل بعض السآمة علىٰ القارئ فقط من تدقيق القسطلاني في اختلاف بعض الألفاظ غير المؤثرة في نسخ وروايات الصحيح

---

(١) السخاوي، الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر، تحقيق إبراهيم عبد المجيد، دار ابن حزم، ص(١/ ١٦١-١٦٣) مختصرًا؛ وقارن بذيل ابن فهد ص(٣٣٦).

Twitter: @ketab_n

كأبي ذر والأصيلي وأبي الوقت والكشميهني والحموي والمستملي وابن عساكر ونحوها مما يذكره في شرحه، أما اختلاف الألفاظ المؤثرة فلا شك أنه أصل في العلم النافع، والمراد أن القسطلاني حين ابتدأ شرحه هذا وبلغ أول باب في صحيح البخاري وهو باب «كيف كان بدء الوحي إلىٰ رسول الله ﷺ» ذكر القسطلاني في هذا الموضع إسناده إلىٰ البخاري، فقال:

(أخبرنا به، وبما سبق من أوّله، إلىٰ آخر الصحيح: الشيخ المُسنِد رحلة الآفاق أبو العباس أحمد بن عبد القادر، وقد جاوز التسعين، بقراءتي عليه لجميع هذا الجامع، في خمسة مجالس، وبعض مجلس، متوالية، مع ما أُعيد لمفوّتين، أظنه نحو العشر، آخر يوم الأحد ثامن عشر من شوّال سنة اثنتين وثمانين وثمانمائة، قال أخبرنا أبو الحسن . .)[1].

ثم واصل القسطلاني عرض أسانيده إلىٰ محمد بن إسماعيل البخاري نفسه صاحب الصحيح، إلىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم.

والحقيقة أنني في هذا الخبر الذي يرويه القسطلاني عن نفسه وشيخه، وقفت متحيرًا، هل العجب من سرعة قراءة القسطلاني، أم العجب من شيخه أبي العباس الذي بلغ التسعين، وانحنىٰ عظم

(١) القسطلاني، إرشاد الساري إلىٰ شرح صحيح البخاري، وبهامشه مسلم مع شرح النووي، المطبعة الكبرىٰ الأميرية ببولاق، الطبعة السابعة، ص(١/ ٤٩).

Twitter: @ketab_n

كهولته، ومع ذلك يتجلد ويكابد مجالس السماع المطولة، ويختم صحيح البخاري كاملًا في خمسة مجالس، وهو شيء لا يطيقه الشُبّان في عنفوان الفتوة إلا وقد أرعدوا بالتأفف ودلقوا لسان التذمر . . فاللهم تغمد رحلة الآفاق برضوانك.

- ومن العلماء الذين درسوا علىٰ القسطلاني عالم الشام في زمانه بدر الدين الغزي (ت٩٨٤هـ) وله مواقف مسجلة في ترجمته في الصدع بالحق في وجه ولاة الجور، وقد كان للبدر الغزي هذا ابن من أهل العلم أيضًا، وهو نجم الدين الغزي صاحب الكتاب التاريخي المشهور «الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة»، وقد شحن النجم الغزي كتابه هذا بأخبار والده ومن له صلة بهم، وكان من جملة من ترجم لهم النجم الغزي تلميذ أبيه «برهان الدين البقاعي»، وذكر عنه وعن أبيه خبرين لافتين في سرعة القراءة، حيث يقول النجم الغزي:

(برهان الدين البقاعي، قرأ علىٰ شيخ الإسلام الوالد في الأصول والعربية، وحضر دروسه كثيرًا، وقرأ عليه البخاري كاملًا في ستة أيام، أولها يوم السبت حادي عشري رمضان، وصحيح مسلم كاملًا، في رمضان سنة إحدىٰ وثلاثين، في خمسة أيام متفرقة)[1].

---

(١) الغزي، **الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة**، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، ص(٢/ ٧٦).

Twitter: @ketab_n

ويلاحظ هاهنا أن البقاعي وشيخه البدر الغزي اختاروا شهر رمضان لجرد الصحيحين، وقرؤوا البخاري في ستة أيام، ومسلم في خمسة أيام!

- وفي كتابه الذي كرسه لأعلام القرن الحادي عشر ترجم المحبي الحنفي لأبي بكر باعلوي الشلي (ت١٠٥٣هـ)، ومما جاء في ترجمته قوله عنه: **(وكان كثير المطالعة للكتب، له جلد عظيم علىٰ قراءتها، فربما استوعب المجلد الضخم في يوم أو ليلة، ويقال أنه قرأ الإحياء في عشرة أيام، وهذا أمر عجيب بالنسبة إلىٰ أهل هذا الزمن)**[1].

والإحياء المقصود هو كتاب أبي حامد الغزالي «إحياء علوم الدين»، وهو مطبوع في خمس مجلدات، أي أنه يقرأ نصف مجلد يوميًا، ويختم كل يومين كتابًا!

-والحافظ المُحدِّث اللغوي المرتضىٰ الزبيدي (ت١٢٠٥هـ) صاحب الموسوعتين الذائعتين «تاج العروس شرح القاموس»، و«شرح إحياء علوم الدين»، له معجم جمع فيه شيوخه ومن روىٰ عنهم علىٰ عادة المحدّثين، وسمّاه «المعجم المختص»، إلا أنه وسّعه وذكر فيه تلاميذه الآخذين عنه أيضًا، ولأن الزبيدي عاش في النصف الثاني من القرن الثاني عشر (١١٤٥-١٢٠٥هـ) فقد صار

---

(١) المحبي، **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر**، تحقيق محمد إسماعيل، دار الكتب العلمية، ص(١/ ٩١).

Twitter: @ketab_n

هذا الكتاب موردًا ثجاجًا لتراجم وتاريخ هذه الحقبة التي وُعِك فيها العمل الترجمي، حتىٰ أن الجبرتي في تاريخه المشهور، وهو تلميذ الزبيدي، التهم كتاب شيخه هذا، حتىٰ قال الكتاني إن «الجبرتي أكل معجم الزبيدي أكلًا لما»[1]، والمراد أن من جُملة من ترجم لهم الزبيديُّ تلميذَه الذي لازمه أبا الحسن علي بن أحمد العلوي التوقادي، وذكر الزبيدي من أحواله وتلاميذه شيئًا عجيبًا في سرعة القراءة، حيث يقول الزبيدي في ترجمة أبي الحسن المذكور:

(وقرأ عليّ «الصحيح» في اثني عشر مجلسًا، في رمضان سنة ١١٨٨هـ، في منزلي بسويقة المظفّر، ثم سمع عليّ «الصحيح» ثاني مرة مشاركًا مع الجماعة، مناوبةً في القراءة، في أربعة مجالس، وكان مدة القراءة من طلوع الشمس إلىٰ بعد كل عصر، وصحيح مسلم في ستة مجالس مناوبةً بمنزلي في خان الصاغة)[2].

فإنهاء هذه المجلدات الأربع في أربعة مجالس وفي ستة مجالس، وجعل هذه القراءة الجماعية من طلوع الشمس إلىٰ العصر، أي بواقع عشر ساعات متواصلة علىٰ الأقل، هذا يؤكد مجددًا العنصرين اللذين سبقت الإشارة إليهما: الطلاقة في المطالعة، عدم الكلال.

- وهذه الأخبار السابقة سرد بعضها الشيخ العلامة جمال

---

(١) الكتاني، **فهرس الفهارس**، ص(٢/ ٦٢٣).

(٢) الزبيدي، **المعجم المختص**، تحقيق نظام يعقوبي ومحمد العجمي، دار البشائر، ص(٥٣٢).

Twitter: @ketab_n

الدين القاسمي (ت١٣٣٢هـ) في الفصل الذي عقده لذلك في كتابه عن مصطلح الحديث، كما سبقت الإشارة لذلك، ثم لما انتهىٰ من سياق هذه الأخبار أردف ذلك بتعليق روىٰ فيه قصةً عن نفسه، حيث يقول القاسمي:

(والعبد الضعيف، جامع هذا الكتاب، قد من الله عليه بفضله فأسمع صحيح مسلم رواية ودراية في مجالس من أربعين يومًا، آخرها في ٢٨ من شهر صفر الخير سنة ١٣١٦هـ، وأسمع أيضا سنن ابن ماجه كذلك في مجالس من إحدىٰ وعشرين يومًا، آخرها في ٢٢ من شهر ربيع الأول سنة ١٣١٦هـ، وأسمع -أيضًا- الموطأ كذلك في مجالس من تسعة عشر يومًا، آخرها في ١٥ من شهر ربيع الآخر سنة ١٣١٦هـ، وطالعت بنفسي لنفسي «تقريب التهذيب» للحافظ ابن حجر، مع تصحيح سهو القلم فيه، وضبطه، وتحشيته من نسخة مصححة جدًا؛ في مجالس من عشرة أيام، آخرها في ١٨ من شهر ذي الحجة سنة ١٣١٥هـ. أقول: وهذه الكتب قرأتها بإثر بعضها، فأجهدت نفسي وبصرىٰ، حتىٰ رمِدْتُ بأثر ذلك، شفاني الله بفضله، وأشفقت من العود إلىٰ مثل ذلك، وتبين أن الخيرة في الاعتدال، نعم لا ينكر أن بعض النفوس لا تتأثر بمثل ذلك لقوة حواسها، وللإنسان بصيرة علىٰ نفسه، وهو أدرىٰ بها)[1].

(١) القاسمي، قواعد التحديث، تحقيق مصطفىٰ شيخ، مؤسسة الرسالة، ص(٤٥٤).

Twitter: @ketab_n

-وهكذا صنع الشيخ عبد الحي الكتاني (ت١٣٨٢هـ) نظير صنيع القاسمي، فإن الكتاني ساق عددًا من الأخبار السابقة، ثم عقّب بعدها بذكر قصة عن نفسه، فقال:

(وجامع هذه الشذرة، محمد عبد الحي الكتاني؛ قرأ صحيح البخاري، تدريسًا، بعنزة القرويين، قراءة تحقيق وتدقيق في نحو خمسين مجلسًا، لم يدع شاذة ولا فاذة تتعلق بأبوابه ومحل الشاهد منها إلا أتىٰ عليها، مع غير ذلك من اللطائف المستجادة، ولعله أغرب وأعجب من كل ما سبق، والله خالق القُوىٰ والقدر)[1] .

والأخبار والقصص السلفية في هذه التقنية من تقنيات الاطلاع والقراءة كثيرة جدًا، ولم يكن الهدف الاستقصاء والاستيعاب، بل الهدف ذكر نماذج منتخبة من قرون الإسلام، بما يؤكد حضور نمط (القراءة الجردية) بين أهل العلم، وأنها ليست تقنية طارئة استحدثها المعاصرون.

وقد كنت مرةً أشاهد محاضرة للداعية الأمريكي **حمزة يوسف** بعنوان (How to read a book?) أي: كيف تقرأ كتابًا؟ وشد انتباهي تنويهه بكتاب بذات العنوان، للمفكر الأمريكي مورتمر أدلر (Mortimer Adler)، وذكر حمزة يوسف أن محاضرته مستمدة من هذا الكتاب، وذكر أنه درس علىٰ المؤلف، وأن المؤلف صديق لوالده، واستمر في تثمين الكتاب، ولما بحثت عن الكتاب

---

(١) الكتاني، **فهرس الفهارس**، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب، ص(٢/١٠٤٩).

Twitter: @ketab_n

اكتشفت أنه مترجم للعربية أيضًا، ترجمه طلال الحمصي، ونشرته الدار العربية للعلوم، بنفس العنوان (**كيف تقرأ كتابًا؟**)، وفي هذا الكتاب نبّه المؤلف علىٰ أهمية القراءة الاستكشافية السريعة المسبقة للكتاب.

كما ميّز المؤلف بين التصفح العشوائي والتصفح المنظم، وذكر أن التصفح المنظم يستهدف الإجابة عن: ما الشيء الذي يبحثه الكتاب؟ ما بنية الكتاب؟ ما أجزاؤه؟

وقد نبه علىٰ أهمية هذه القراءة الاستعراضية الأولية بقوله:

(معظم الأشخاص، بل وحتىٰ عدد كبير من القراء الجيدين؛ لا يعرفون أهمية القراءة التصفحية، إنهم يبدؤون الكتاب من الصفحة الأولىٰ، ويتقدمون بجد وثبات حتىٰ آخر الكتاب، وبدون قراءة الفهرس، إنهم في هذه الحالة يواجهون إنجاز هدف المعرفة السطحية للكتاب، بنفس الوقت الذي يحاولون به فهمه، وهذا يضاعف صعوبة الكتاب)[1].

وقد ذكر إرشادات وآليات لهذا النوع من القراءة التصفحية في الفصل الرابع[2].

ومن أهم الإشكالات التي تطرأ في أذهان بعض القراء هو قولهم: أننا من خلال القراءة السريعة نخشىٰ أن لا نفهم؟!

---

(١) مورتيمر أدلر، **كيف تقرأ كتابًا؟**، ترجمة الحمصي، الدار العربية للعلوم، ص(٣٣).
(٢) المصدر السابق، ص(٤٧).

Twitter: @ketab_n

وهذا غير دقيق بتاتًا، فكثير من الناس يتصور أن البطء في القراءة يثمر دومًا الفهم، وهذا صحيح جزئيًا، ولكنه ليس كل شيء، بل هناك مستوىٰ من الفهم لا يمكن إلا بالقراءة السريعة! وهي «**التصورات العامة للكتاب**»، ولو قلت لشخص إنك بالقراءة البطيئة سيفوت عليك فهم أشياء مهمة في الكتاب لربما يستغرب، ولكن هذا أثبتته التجربة، ونبه عليه عدد من المعنيين بالمعرفة، ومن ذلك ما قاله عالم الرياضيات والفيزياء الفرنسي المعروف باسكال (ت١٦٦٢م) في رسالة صغيرة له ضمنها بعض تأملاته يقول فيها:

(When we read too fast or too slowly, we understand nothing)[1].

وترجمتها: (**حين نقرأ بسرعة شديدة، أو ببطء شديد؛ فإننا لا نفهم شيئًا**)

والحقيقة أن كون القراءة بسرعة «**شديدة**» تنتج عدم الفهم، هذا معروف وشائع، لكن كون القراءة ببطء «**شديد**» تنتج أيضًا عدم الفهم؛ فهذا تصور يغيب عن الكثير من المعنيين بالقراءة والاطلاع! بل لربما تصور بعضهم العكس، وهو أن القراءة ببطء شديد تثمر مزيد الفهم، برغم أنها تضيع الفهم!

لقد أثبتت التجربة أن التصورات العامة للكتاب ليست موجودة في «**المفردات**» بل في «**الروابط**» بين المفردات، وهذه الروابط لا

(١) Pascal B ، . *Pensées*، no. 69

Twitter: @ketab_n

تتضح للذهن إلا إذا تم وصلها بسرعة، فأما مع الانفصال الزمني بينها فإن الذهن يشرد.

علىٰ أية حال، المقصود من هذه الفصل عرض نمط للقراءة وظّفه علماء السلف بكثافة، ونبه عليه لاحقًا علماء ومفكرون غربيون، والهدف منه المساهمة في بناء المعرفة والعلم في المجتمع المسلم، وتخيل معي لو أن طالب علم قرر جرد مطولات الاسلام في فترة وجيزة، مثل: الكتب الستة، وتفسير الطبري، وتفسير القرطبي، والتمهيد لابن عبد البر، وفتح الباري لابن حجر، والمغني لابن قدامة، ونهاية المطلب للجويني، ومجموع فتاوىٰ ابن تيمية، وتاريخ الاسلام للذهبي، فماذا سيحصل من: التصورات الشرعية الكلية، ومظان المسائل، وهياكل الفنون، ومواطن الاتفاق والاختلاف؟!

بل هل يسمح العمر بقراءة مثل هذه المطولات إلا بنمط القراءة الجردية التي طبقها السلف؟

العمر قصير، ومطولات الإسلام كبيرة، وفيها أمتع ما في الدنيا، وأخشىٰ أن تكون أوقات شباب الإسلام الذين عليهم الرهان تلتهمها مواقع التواصل الاجتماعي، والعلم والثقافة سواعد الدعوات.

Twitter: @ketab_n

التصنيف التحصيلي

تواطأت عبارات كثير من أهل العلم علىٰ التعجب والتساؤل حول كثرة مؤلفات الإمام النووي وشهرتها في الأقطار، في مقابل قصر عمره العلمي.

وقرأت وسمعت للبعض ممن يتساءل: كيف تأتّىٰ للنووي إنجاز هذه المؤلفات العلمية المبنية علىٰ التحرير والتدقيق برغم محدودية المسافة الزمنية العلمية التي كتب الله له أن يعيشها رحمه الله؟

يستطيع كثير من المعنيين بالعلم أن يكتب كتابات جمعٍ وتلخيصٍ واختصارٍ بكثرة، لكن أن يكتب كتابة تحرير وتدقيق وتحقيق، بحيث تكون هذه الكتب مرجعية لدىٰ العلماء الكبار، فهذا يحتاج غالبًا عمرًا طويلًا من الحفظ والضبط والبحث والتنقيب ومقارنة المصادر ومدارسة المسائل والتأمل والخبرة الطويلة بها، ومن هاهنا موضع الدهشة والانبهار حيال مؤلفات النووي، فمؤلفات النووي في الحديث والفقه واللغة والأعلام صارت

Twitter: @ketab_n

«مصادر مرجعية» بين المتخصصين، برغم أن النووي طلب العلم متأخرًا، ومات مبكرًا!

فالنووي ابتدأ في طلب العلم متأخرًا نسبيًا سنة (٦٤٩هـ) وكان عمره حينها كما أخبر هو عن نفسه (١٩سنة)، وهذا عمر متأخر في الطلب بالنسبة لزمانهم الذي يبتدئون فيه بطلب العلم قبل البلوغ، كما يقول النووي عن نفسه: **(فلما كان عمري تسع عشرة سنة؛ قدم بي والدي إلىٰ دمشق في سنة تسع وأربعين، فسكنت المدرسة الرواحية)**[1].

ثم توفي النووي رحمه الله سنة (٦٧٦هـ) وكان عمره حين توفي (٤٥) عامًا، والعلماء في سن الأربعين يبتدئ للتو عطاؤهم العلمي الدقيق المحرر، فلم يعمّر الشيخ رحمه الله.

حسنًا .. متىٰ ابتدأ الشيخ بالتأليف والتصنيف؟ يقول الشيخ عن نفسه أنه مكث ست سنوات في طلب العلم ثم بدأ التأليف، أي أنه بدأ التأليف وعمره (٢٥سنة)، كما يخبر النووي تلميذَه ابن العطار:

(وذكر لي -رحمه الله- أنه كان لا يضيِّع له وقتًا في ليل ولا نهار؛ إلا في وظيفة من الاشتغال بالعلم، حتىٰ في ذهابه في الطرق ومجيئه يشتغل في تكرار محفوظه، أو مطالعة، وأنه بقي علىٰ

---

(١) ابن العطار، **تحفة الطالبين ترجمة الإمام محيي الدين**، مطبوع ضمن كتاب **الإيجاز شرح سنن أبي داود للنووي**، تحقيق مشهور آل سلمان، الدار الأثرية، ص(٤٥).

Twitter: @ketab_n

التحصيل علىٰ هذا الوجه نحو ست سنين، ثم إنه اشتغل بالتصنيف)[1].

هذا يعني أن غالب مؤلفات النووي التي نتداولها اليوم ألفها وهو في العشرين والثلاثين من عمره!

وهذه التواريخ التي استندت إليها، أعني: تاريخ بداية طلب النووي للعلم، وتاريخ بدايته التأليف، وتاريخ وفاته، كلها أخذتها من رسالة ابن العطار (ت٧٢٤هـ)، وهو أشهر تلاميذ النووي وأخصهم به، والتي كتبها رحمه الله في ترجمة شيخه النووي وسمّاها (**تحفة الطالبين في ترجمة الإمام محيي الدين**) وعن هذه الرسالة نقل الناس أخبار النووي، وهي أوثق وأدق مصدر لترجمة النووي، ومن شدة اختصاص ابن العطار بشيخه النووي كان يسمىٰ (**مختصر النووي**) كما يقول السخاوي: (**وقد أفرد ترجمة النووي بالتصنيف خادمه العلامة علاء الدين الدمشقي، عرف بابن العطار، الذي كان لشدة ملازمته له وتحققه به، يقال له «مختصر النووي»، وهو عمدتي بل عدتي، بل عمدة كل من أتىٰ بعده**)[2].

وبالمناسبة، فهذه الطريقة في تسمية العالم بمن اختص به من عالمٍ أو كتاب، كتسمية ابن العطار «مختصر النووي» هي طريقة معروفة مشهورة، ولها أمثلة ونظائر، فمن ذلك أن «الكافيجي» (ت

---

(١) المصدر السابق، ص(٦٤).

(٢) السخاوي، **المنهل العذب الروي في ترجمة قطب الأولياء النووي**، تحقيق أحمد المزيدي، دار الكتب العلمية، ص(٥٩).

Twitter: @ketab_n

٨٧٩هـ)، وهو شيخ السيوطي، ليس اسمه في الحقيقة الكافيجي، بل اسمه محيي الدين البرعمي، ولكن (**لقّب بالكافيجي لكثرة اشتغاله بكتاب «الكافية» في النحو**)[١]. والكافية هي المختصر الشهير لابن الحاجب في علم النحو اختصرها من خلاصة شرحه علىٰ المفصل للزمخشري، ومن الطريف أن بعض المعاصرين المبرزين في علم التصريف، وهو الدكتور حسن العثمان، سمىٰ نفسه «الشافِيَجي» لعنايته بكتاب «الشافية» في علم التصريف لابن الحاجب أيضًا[٢].

ومن هذا الباب أيضًا لقب «الفصيحي» أحد علماء النحو، فليس اسمه كذلك، بل كما يقول ياقوت الحموي (**سمي بالفصيحي لكثرة دراسته «كتاب الفصيح» لثعلب، وصار له به أُنس**)[٣].

ومن ذلك إمام الحنابلة في زمنه «**غلام الخلال**» (ت ٣٦٣هـ) فاسمه أبو بكر عبد العزيز، ولكن لشدة اختصاصه بالخلال سمي (غلام الخلال)، وتسميته غلام الخلال ليست تهوينًا من إمكانياته الفقهية كما قد يوحي ذلك للوهلة الأولىٰ لغير المختص، فالذهبي صاحب الخبرة المعروفة في تراجم رجالات الإسلام، حتىٰ اعتُبِر من أصحاب الاستقراء التام؛ يفخّم منزلة غلام الخلال جدًا، حيث

---

(١) ابن العماد، **شذرات الذهب**، تحقيق محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، ص(٩/ ٤٨٨).

(٢) ابن الحاجب، **الشافية في علمي التصريف والخط**، تحقيق د. حسن العثمان الشافِيَجي، المكتبة المكية.

(٣) ياقوت الحموي، **معجم الأدباء**، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب، ص(٥/ ١٩٦٤).

Twitter: @ketab_n

يقول الذهبي في سير النبلاء (**قلت: ما جاء بعد أصحاب أحمد مثل الخلال، ولا جاء بعد الخلال مثل عبد العزيز، إلا أن يكون أبا القاسم الخرقي**)[1].

وابن العطار هذا هو -أيضًا- من شيوخ الذهبي (ت٧٤٨هـ)، وهو كذلك أخو الذهبي من الرضاع، ونقل الذهبي في كتبه ترجمة النووي من رسالة ابن العطار شيخه المشار إليها، ونقل الذهبي أشياء عن ابن العطار ليست في رسالته، فيبدو أن الذهبي أخذها من شيخه ابن العطار مشافهة، أو أن ثمة اختلاف في نسخ تحفة الطالبين، ولم تصلنا النسخة الأتم.

حسنًا .. لنعد الآن إلىٰ التساؤل المطروح: كيف تأتّىٰ للنووي تأليف هذه المؤلفات الكبيرة المرجعية ذات الوزن المصدري برغم أنه طلب العلم متأخرًا نسبيًا وعمره (١٩) سنة، وتوفي مبكرًا وعمره (٤٥) سنة، رحمه الله؟

هناك أطروحات متعددة في تعليل ذلك، لكن من أطرف وأعجب هذه التفسيرات، تفسير أشار إليه العلامة **جمال الدين الإسنوي** (٧٧٢هـ) صاحب الكتاب المشهور (التمهيد في تخريج الفروع علىٰ الأصول)، ذلك أن الإسنوي له كتاب آخر من المطولات لم يشتهر بعد بين الباحثين المعاصرين بسبب تأخر طباعته، إذ لم يولد علىٰ رفوف المكتبات إلا عام ١٤٣٠هـ، وبقي

---

(١) الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، مؤسسة الرسالة، ص(١٦/ ١٤٤).

Twitter: @ketab_n

مخطوطًا كل هذه السنوات، وكتابه هذا اسمه (**المهمات في شرح الروضة والرافعي**) وهو كتاب يقع في عشرة مجلدات، علىٰ طريقة البسط والتوسع لا الاختصار، واشتغل فيه الإسنوي بدراسة المسائل التي ذكرها النووي والرافعي دراسة نقد ومقارنة وتمحيص، تميل إلىٰ الصرامة والقسوة أحيانًا، ومن الواضح منزلة كتاب المهمات في نفس الإسنوي نفسه، حتىٰ أنه يشير إليه وينوه به كثيرًا في كتابه (التمهيد في تخريج الفروع علىٰ الأصول)، وفي كتاب (المهمات) نقولات لا تكاد توجد في كتب الشافعية بسبب أن الإسنوي كما يقول عن نفسه: (**وقد تيسر لي بحمد الله من مؤلفات الشافعي والأصحاب، خصوصًا الأقدمين؛ ما لم يطرق اسمه بالكلية أذن أكثر المكثرين، ولم أعلمه قد اجتمع في مدينتنا عند أحد من العصريين، هذا وهي اليوم أعظم مدن الإسلام**)[1].

المهم أن الإسنوي في كتابه الضخم هذا تعرض لشيء من سيرة النووي، وطرح تفسيرًا لتساؤل (كثرة مؤلفات النووي برغم قصر عمره العلمي). تأمل معي تفسير الإسنوي ودعنا نناقش معطياته، حيث يقول الإسنوي في معرض ذكر التفاوت في مواضع من الروضة:

(**ووقوع هذا للشيخ محيي الدين النووي أكثر، وذلك أنه لما تأهل للنظر والتحصيل، رأىٰ من المسارعة إلىٰ الخيرات أن جعل**

---

(١) الإسنوي، **المهمات في شرح الروضة والرافعي**، تحقيق الدمياطي، دار ابن حزم، الطبعة الأولىٰ، ١٤٣٠هـ، ص(١/ ٩٤).

Twitter: @ketab_n

ما يحصله ويقف عليه تصنيفًا، ينتفع به الناظر فيه، فجعل تصنيفه تحصيلًا، وتحصيله تصنيفًا . . ، ولولا ذلك لم يتيسر له من التصانيف ما تيسر، فإنه رحمه الله دخل دمشق للاشتغال وهو ابن ثمانية عشرة سنة، ومات ولم يستكمل ستًا وأربعين)[1].

لا أستطيع أن أواري دهشتي من براعة هذه العبارة للإسنوي (فجعل تصنيفه تحصيلًا، وتحصيله تصنيفًا) وهو تعبير يمهد الطريق لنحت مصطلح (التصنيف التحصيلي).

ومراد الإسنوي أن النووي جعل تأليفه وسيلة للتحصيل وطلب العلم، وجعل طلبه وتحصيله للعلم في صيغة مؤلفاتٍ فورًا، أي أن تقييداته أثناء طلب العلم يجعلها في صيغة مؤلفات، بدلًا من أن تذهب مقيدات الشباب سدىٰ.

وهل هذا الأمر حدث اتفاقًا للنووي، أم كان سلوكًا واعيًا، بمعنىٰ أن النووي كان يستحضر فائدة التأليف في تعليم المؤلف ذاته؟ الحقيقة أن ثمة عبارة للنووي قالها في كتابه الآخر «شرح المهذب» تكشف أن عنايته المبكرة بالتأليف كانت لأهداف التعلم الذاتي، حيث يقول النووي في مقدمته التي شرح فيها آداب طالب العلم:

(وينبغي أن يعتني بـ«التصنيف» إذا تأهل له، فبه يطلع علىٰ حقائق العلم ودقائقه، ويثبت معه، لأنه يضطره إلىٰ كثرة التفتيش

---

(١) المصدر السابق، ص(١/ ٩٩).

Twitter: @ketab_n

والمطالعة والتحقيق والمراجعة، والاطلاع علىٰ مختلف كلام الأئمة ومتفقه، وواضحه من مشكله، وصحيحه من ضعيفه، وجزله من ركيكه، وما لا اعتراض عليه من غيره، وبه يتصف المحقق بصفة المجتهد)[1].

فالنووي هاهنا لا يحث علىٰ التصنيف فقط، بل يكشف الاعتبارات الدافعة للتصنيف، ويسهب في شرح أثرها في الصعود بتصورات طالب العلم، من جهة أنها تلجئه إلىٰ التمعن.

وهل فكرة التصنيف التحصيلي، أو «التأليف بهدف التعلم» تصور منفرد؟ أو تصور متأخر إلىٰ عصر النووي؟ لا، طبعًا، فثمة شواهد قبل ذلك بقرون، ومن أجمل تلك الشواهد عبارة نقلها حافظ الدنيا في عصره الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ) عن أشياخه، ذلك أن الخطيب تحدث عن أهمية التأليف، ثم نقل عبارة تحث علىٰ تحويل الكتابة الشخصية للتعلم إلىٰ كتابة تصنيفية، يقول الخطيب: **(ينبغي أن يفرغ المصنف للتصنيف قلبه، ويجمع له همه، ويقطع به وقته، وكان بعض شيوخنا يقول «من أراد الفائدة فليكسر قلم النسخ وليأخذ قلم التخريج»)**[2].

بالله عليك ألم تجد طعم هذه العبارة في حلقك «فليكسر

---

(١) النووي، **المجموع شرح المهذب**، تحقيق محمد نجيب المطيعي، مكتبة الإرشاد، ص(١/٥٦).

(٢) الخطيب، **الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع**، تحقيق محمد عجاج الخطيب، مؤسسة الرسالة، ص(٢/٤٢٨).

Twitter: @ketab_n

قلم النسخ، وليأخذ قلم التخريج»؟!

لكن ما معنىٰ هذه العبارة؟ علّق علىٰ هذه العبارة **البقاعي** (ت٨٨٥هـ) تلميذ الحافظ ابن حجر، حيث قال: (أي: **لأن الناسخ لا يتأمل في الغالب ما يكتبه، وإن تأمّل لم يُمعِن، بخلاف المخرِّج، فإنه يحتاج أن يتأمل حق التأمل**)[1].

ولا يبعد أن يكون هذا الشرح لابن حجر نفسه، ذلك أن غالب ما في كتاب النكت الوفية للبقاعي إنما هو تقييدات للبقاعي من تعليقات شيخه ابن حجر علىٰ شرح التبصرة والتذكرة.

والمراد أن هذا التعليق في كتاب البقاعي علىٰ العبارة التي نقلها الخطيب عن شيوخه تقودنا إلىٰ الوقوف علىٰ مبررات ومستندات هذه المقولة، وهي أن من يشتغل بنسخ العلم وكتابته لنفسه لا يكون في قوة التأمل والتمعن والفحص كمن يكتب ليخرّج، لأن التخريج يستدعي المقارنة والموازنة، وهذا يساند التحليل السابق المذكور في كلام النووي حين قال «لأن التصنيف يضطره إلىٰ كثرة التفتيش والمراجعة»، بما يعني أن «مقارنة المصادر ينبوع التحقيق»، وهكذا شأن التصنيف والتأليف.

ولاحظ في هذه العبارة التي نقلها الخطيب البغدادي عن شيوخه أنها تدعو طالب العلم أن يتوقف عن مرحلة معينة من طلب

---

(١) البقاعي، **النكت الوفية بما في شرح الألفية**، تحقيق ماهر الفحل، مكتبة الرشد، ص(٢/ ٣٩٤).

Twitter: @ketab_n

العلم، وينتقل إلىٰ مرحلة أخرىٰ، فينتقل من التلقي المحض، إلىٰ التلقي بالمقارنة والتمحيص، فالنسخ نقل صِرف، والتخريج يستلزم المقارنة بين المعطيات الحديثية.

ولاحظ -أيضًا- كيف ساق الخطيب البغدادي هذه العبارة «من أراد الفائدة فليكسر قلم النسخ وليأخذ قلم التخريج» في موضع الشاهد علىٰ فائدة التصنيف، ذلك أنه لما ذكر التصنيف والتأليف وأهميتهما ساق هذه العبارة مساق الشاهد والتعزيز.

ولاحظ أيضًا -وهذا هو الأهم- أن هذه المقطع الذي يتحدث فيه الخطيب البغدادي عن التصنيف؛ ليس المقصود به الانتقال للتصنيف لنفع الناس، بل المقصود به التصنيف لإفادة الطالب نفسه، ذلك أنه صدّر هذه العبارة بقوله (من أراد الفائدة) بما يعني أنها وصية للطالب الذي قطع شوطًا بأن يبدأ يصنف ليستفيد.

ثم إن بعض المشتغلين بالعلم من المتأخرين لما تكلموا في أغراض التأليف وغايات المصنفين، أشار بعضهم إلىٰ هذا المعنىٰ، وهو أن طالب العلم يؤلف ويصنف ليبني نفسه علميًا، فمن ذلك المؤرخ الوراقي البحاثة التركي **حاجي خليفة** (ت ١٠٦٧هـ)، وهو من أعاجيب الدنيا في الخبرة بالكتب والمصنفات، حتىٰ أن **الزركلي** (ت ١٣٩٦هـ) في حديثه عن بعض الكتب يكتفي بقوله: (رآه حاجي خليفة)!

فقد عقد حاجي خليفة فصولًا بديعة في مطلع كتابه (**كشف الظنون**) تحدث فيها عن (**أحوال العلوم**)، ومن ذلك الفصل الذي

Twitter: @ketab_n

سماه (**الترشيح الثالث: في أقسام المصنفين، وأحوالهم**) حيث يقول فيه: (**ومنهم: من جمع وصنّف للاستفادة، لا للإفادة، فلا حجر عليه، بل يرغب إليه إذا تأهل، فإن العلماء قالوا: ينبغي للطالب أن يشتغل بالتخريج والتصنيف فيما فهمه منه**)[1].

فحاجّي خليفة أصل في الخبرة بتاريخ التأليف والتصنيف في الإسلام، وهاهو يشير إلىٰ أن بعض أهل العلم صنّف بغرض أن يفيد نفسه أساسًا.

ولذلك تجد في مقدمات كثير من كتب أهل العلم قولهم أنه صنفه لنفسه أصالةً، كقول الخلوتي في مقدمة كشف المخدرات: (**ولكن علقته لنفسي، ولمن شاء الله تعالىٰ من بعدي من الإخوان**) وكقول ابن ضويان في مقدمة منار السبيل: (**وإنما علقته لنفسي، ولمن فهمه قاصر كفهمي**) ونحو هذه العبارات كثيرة جدًا في مقدمات كتب أهل العلم، بل تجد كثيرًا من أهل العلم يقول عن كتاب معين له أن جمعه لنفسه، ولم يكن يعزم نشره، لكن رآه بعض الناس فأشار عليه بإخراجه.

ومن النماذج المعاصرة التي لفتت انتباهي تجربة الشيخ د. سفر الحوالي، فقد كانت قراءة الشيخ واطلاعه كله في التراث الإسلامي، وخصوصًا المصنفات العقدية لأهل السنة ومكتبة شيخ الإسلام ابن تيمية، ولكنه لما سجل رسالة الماجستير في العلمانية

---

(١) حاجي خليفة، **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، دار إحياء التراث، ص(١/ ٣٨).

Twitter: @ketab_n

اضطرته الرسالة للاطلاع الاستعراضي المنظم علىٰ أصول العلوم الإنسانية الغربية، حيث يقول الشيخ عن نفسه في كتابه «العلمانية»:

(وقد عرفت منذ اللحظة الأولىٰ أن مهمتي ليست بيسيرة، وأن عليَّ أن أخوض في ميادين بعيدة عن مجال دراستي الشرعية البحتة، جاعلًا كل قراءاتي السابقة في الفكر الغربي بمثابة التمهيد فقط لما يجب علي أن أنهض به، وفعلًا خصصت نصف المدة المحددة للرسالة -تقريبًا- في اطلاع دائب وقراءة متواصلة، فاطلعت علىٰ أمهات النظريات والاتجاهات في السياسة، والاقتصاد، والعلم، والاجتماع، والأدب، والفن، وكنت كلما ازددت إيغالًا في الاطلاع ازدادت ثقتي، وقوي عزمي علىٰ إكمال الطريق، ومع أن المراجع المذكورة آخر الرسالة لا تساوي إلا جزءًا مما قرأت، فإنني لا أشعر بشيء من الخسارة، بل أحمد الله تعالىٰ الذي أراني الفكر الجاهلي الأوروبي علىٰ حقيقته)[1].

فبالله عليك لولا أن الله قدّر أن يكتب الشيخ سفر هذه الرسالة هل كان سيأخذ هذه الجولة المنظمة في العلوم الإنسانية المعاصرة؟! وهذا الاطلاع علىٰ الفكر المعاصر بالإضافة لتكوينه الشرعي المؤصل، هو الذي وهب الشيخ سفر فرادته الخاصة، فانظر أثر التصنيف والتأليف علىٰ المؤلف نفسه!

وأتذكر مرةً أن أحد أصدقائي في كلية اللغات والترجمة، كان

---

(١) الحوالي، العلمانية، دار الهجرة، ص(١١).

Twitter: @ketab_n

متخصصًا في اللغة الفرنسية، ويحدثنا عن أيام دراستهم، ويقول أن مشروع التخرج في كليتهم هو اختيار كتاب باللغة الفرنسية وترجمته، ويقارن مقارنة مدهشة ويقول: أن كل ما درسه عن اللغة الفرنسية أيام الكلية في كفة، وترجمته للكتاب في كفة أخرىٰ، وأنه استفاد من مشروع التخرج أضعاف ما تلقاه في المحاضرات تلقيًا محضًا مباشرًا، ويتحدث حديثًا وجدانيًا عن الليالي التي سهرها يتفحص عبارات في الكتاب الذي سيترجمه ويقارنها بالقواميس والمراجع.

حسنًا .. هل هذا قاصر علىٰ «التصنيف»؟ لا، طبعًا، بل سائر أنواع الإنتاج والعطاء العلمي مفيدة في التحصيل، فمثلًا: (تدريس العلم) يظن بعض الناس أنه مرحلة تأتي بعد الانتهاء من العلم، وهذا غير دقيق، بل تدريس العلم وسيلة من وسائل التعلم، فإذا قطع طالب العلم شوطًا في العلم، فيبدأ بتدريس من دونه، ويلاحظ كيف تتفتح له أغوار المسائل، ويتبين له فيها من التفاصيل والفروق والتدقيق في الصور والاستدلالات ما لم يتنبه له سابقًا.

وقد سمعت بأذني كثيرًا من طلبة العلم يتحدثون عن أثر اشتغالهم بـ(تدريس العلم) في تمتين وتعميق تصوراتهم العلمية، وإشعال حماسهم للمراجعة والتأمل والبحث والنظر، بل بعضهم يشير إلىٰ أن غرضه الأساس من انهماكه في تدريس العلم تحول من هدف تبليغ العلم، إلىٰ هدف الاستعانة بالتدريس علىٰ التعلم والتحصيل، لما رأىٰ من فائدته له شخصيًا.

Twitter: @ketab_n

وهذه الظاهرة، أعني دور التعليم في ترسيخ العلم في نفس المعلم نفسه؛ نبّه عليها بعض أئمة التابعين، بل صوّروها في صور تأكيدية، كقول النخعي: **(إذا سمعت حديثًا فحدِّث به حين تسمعه، ولو أن تحدث به من لا يشتهيه، فإنه يكون كالكتاب في صدرك)**[1].

بل إن الخليل بن أحمد سمىٰ التعليم دراسة! وهذا غاية ما يمكن من الربط بين التعليم والتعلُّم، كما قال الخليل بن أحمد: **(اجعل تعليمك دراسة لعلمك)**[2].

ومن الأخبار الطريفة في هذا السياق القصة المروية عن الإمام المحدث إسماعيل بن رجاء الكوفي، وهو ممن خرج له مسلم في صحيحه، حيث يروي الأعمش عن إسماعيل بن رجاء **(أنه كان يجمع صبيان الكتّاب، فيحدِّثهم، لئلا ينسىٰ حديثه)**[3].

وسأنقل شاهدًا طريفًا حول مسألة أثر تدريس العلم في تعميق تصورات المعلّم نفسه قبل المتلقين، وهو مثال من خارج الدائرة الإسلامية، ألا وهو الناقد الأدبي الأشهر إدوارد سعيد (ت ١٤٢٤هـ)، حيث لاحظ كيف أنه أثناء عملية التدريس ذاتها تتفتح له تصورات لم تكن علىٰ باله أثناء التحضير، بل وأصبحت هذه الأفكار التي تطرأ له أثناء التدريس يستثمرها ويدونها في مؤلفاته، وعنون إدوارد

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٢٦٦٦١).

(٢) الماوردي، **أدب الدنيا والدين**، تحقيق محمد كريم راجح، دار إقرأ، ص(٩٢).

(٣) سنن الدارمي (٦٢٩)، جامع بيان العلم ص(١٣٩).

Twitter: @ketab_n

سعيد لهذا الأمر عنوانا في أحد كتبه سماه (**لطالما تعلّمت أثناء الدرس**) يقول في هذا الفصل:

(أنا أدرّس منذ أربعين عامًا تقريبًا، ولطالما تعلمت أثناء الدروس نفسها. أفتقد لشيء ما عندما أقرأ وأفكر من دون وجود طلاب، ولذلك طالما اعتبرت دروسي ليست روتينًا يفترض القيام به، بل تجربة بحث واستكشاف، وأعتمد كثيرًا جدًا على ردات فعل طلابي. عندما بدأت التدريس في أيامي الأولى، كنت أفرِط في التحضير، كنت أخطط لكل ثانية من الدرس. فيما بعد، اكتشفت أن تعليقات الطلاب يمكنها أن تحفّز أفكارًا ونقاشات لم أكن أتوقعها مسبقًا، وفي كثير من الأحيان كان ذلك يجد مكانه في كتاباتي)[1].

في هذا النص يشير إدوارد سعيد إلى طريقته السابقة في تحضير دروسه، وهو أنه كما يقول عن نفسه (كنت أخطط لكل ثانية من الدرس) ثم اكتشف أن ما تثيره عملية التدريس ذاتها من أفكار وتصورات أعمق بكثير من التفاصيل المعدّة مسبقًا، فلذلك تحول إلى إتاحة الوقت لهذا العامل ليستثمر هذه التدقيقات والانبلاجات والحدوس، فتنعكس لاحقًا على أبحاثه وكتبه.

أحد أقراني في طلب العلم كان يلتمس منه بعض المربّين أن

---

(١) إدوارد سعيد، **السلطة والسياسة والثقافة**، ترجمة نائلة حجازي، دار الآداب، ص(٣٠٥).

Twitter: @ketab_n

يلقي دروسًا علىٰ بعض المبتدئين في طلب العلم من طلاب حلقات تحفيظ القرآن، فكان يمتنع مستحضرًا معاني وجوب التواضع وهضم النفس وأن هذا من التصدر المبكر ونحوها، ثم إن ظروفه الأكاديمية ساقته سوقًا للتدريس فتفاجأ بأثر التدريس في فهم العلم وتحقيقه وتحريره والتدقيق في معانيه، فصار مشغوفًا بأي فرصة تدريس لما يتحرىٰ فيها من الأثر العلمي علىٰ نفسه، ثم إنه بعث لي برسالة شخصية بديعة جدًا، يتحدث فيها عن تجربته، وهذا نصّها:

(ظللت زمانا أمتنع عن تدريس بعض المتون الصغيرة التي كنت أظنني أتقنتها، وفي الفصل الماضي اضطررت بسبب الوظيفة لتدريس بعض المسائل الشرعية، فإذا بي أكتشف أن المستفيد الأكبر من التعليم هو المعلِّم، هذه حقيقة لا يدركها إلا من جرب؛ فثمة ثغرات بيّنة في فهم بعض المسائل لا تنكشف إلا في قاعة الدرس، بل ثمة استنباطات وفتوحات، وربط بين الأبواب لا يتجلىٰ إلا مع التدريس، ولعل هذا من بركة نشر العلم وتعليمه. بعد رسوخ هذا القناعة أصبحت -والله يشهد- أبحث عمن أشرح له بعض المتون، وصرت أتصل ببعض الإخوان باحثًا عن طلاب علم يريدون استشراح متن! كنت من زاوية أخرىٰ أبحث عن من آخذ منه بركة التعليم!). اهـ

وأنا بدوري أنقل هذه التجربة عن صاحبي لما ألتمس فيها من تحفيز طلاب العلم المتميزين علىٰ نشر العلم وتبليغه، لما يرجونه

Twitter: @ketab_n

من الأثر العلمي علىٰ أنفسهم أولًا، وأن التدريس مفتاح من مفاتيح تحقيق العلم، وتحرير مسائله.

حسنًا .. لنضع الآن الشواهد الثلاثة السابقة أمام ناظرينا مجددًا ولنجعلها مفتاحًا لمناقشة بعض الظواهر في بيئتنا العلمية، هذه النماذج الثلاثة السابقة هي:

١- قول الإسنوي عن النووي (**فجعل تصنيفه تحصيلًا، وتحصيله تصنيفًا**)

٢- وقول الخطيب البغدادي (**وكان بعض شيوخنا يقول «من أراد الفائدة فليكسر قلم النسخ وليأخذ قلم التخريج»**).

٣- وقول حاجي خليفة (**ومنهم: من جمع وصنّف للاستفادة، لا للإفادة**).

هذه الشواهد الثلاثة تقودنا إلىٰ مناقشة تصور منتشر وشائع، وهو أن التأليف والتصنيف لا يكون إلا بعد الانتهاء من طلب العلم، وانقضاء مرحلة التحصيل، وهذا تصور تسبب في أضرار علىٰ الحالة العلمية والتصنيفية.

تأمل الآن لمحات من احتياجاتنا العلمية: يحتاج عموم الناس اليوم إلىٰ تيسير العلم وتقريبه لهم، ويحتاج المبتدئون في العلم في كافة الأصقاع في المدن والقرىٰ إلىٰ تكثيف فرص الدروس التي تتلاقي وتستجيب لاحتياجات الطلاب المتنوعة من حيث مستوىٰ الدرس ووقته اليومي، وتتوالىٰ مسائل النوازل التي تثير التعطش

Twitter: @ketab_n

الشديد لدىٰ الشباب للبحوث والدراسات التي تعالجها، وتطلب المؤسسات المصرفية والزكوية كثيرًا من أبحاث الفقه المالي، ويتساءل الأطباء عن كثير من صور التداوي وأحكامها الشرعية، وتثير أحداث الربيع العربي كثيرًا من مسائل فقه السياسة الشرعية بصورة ملحة جدًا، ويثير أسرىٰ الثقافة الغربية الغالبة شبهات ومسائل كثيرة في الفضائيات، والصحافة التقليدية، ومواقع التواصل الاجتماعي، حول أحكام المرأة أو الحسبة ونحوها، تحتاج لأوراق علمية رصينة تناقشها، ونحو ذلك من احتياجات المجتمع.

وبالمقابل: تأمل في الظاهرة العلمية تجد كثيرًا من طلاب العلم المتميزين، والأكاديمين الجادّين، وتأمل مثلًا طلبة العلم القادرين علىٰ البحث ممن ينشرون بعض مشاركاتهم في المنتديات العلمية الجادّة: كملتقىٰ أهل الحديث، وملتقىٰ أهل التفسير، وملتقىٰ أهل اللغة، والمجلس العلمي، ونحوها.

وتأمل في كثير من الأقسام العلمية في الكليات الشرعية، فلا تجد قسمًا إلا وفيه ثلة علمية مميزة انتسبت للقسم لدواعي العلم، لا لدواعي وظيفية أو اجتماعية.

فإذا تأملت العلاقة بين احتياجاتنا العلمية الواقعية الماسة، والكوادر المتميزة القادرة علىٰ البحث والكتابة؛ رأيت هناك نوعًا من الفتور في التجاوب السريع ونشر الأبحاث والأوراق العلمية، ومناقشة الأبحاث والدراسات المنشورة، وإشعال الوسط العلمي

Twitter: @ketab_n

بالإنتاج والتداول والتتميم والنقد والاعتراض والتعزيز، برغم وجود قدر مشكور طبعًا من الدراسات، فأنا لا أرتاح لمسلك القسوة في تصوير الواقع، والإسراف في النقد الذاتي، ونكران المنجزات.

والحقيقة أنني عرضت هذا الموضوع علىٰ كثير من المتخصصين المتميزين، من طلاب علم مستقلين أو أكاديميين، وكنت أسألهم: لماذا لا يكتبون وينشرون ويعالجون المسائل التي يفور بها المجتمع اليوم؟

فرأيت كثيرًا منهم يتحدث عن أنه يؤجل هذه المشروعات حتىٰ ينهي طلب العلم ويكمل مشواره العلمي ونحو هذه العبارات، والحقيقة أن هذا العذر فرع عن تصوُّر أن التصنيف وسيلة عطاء محض، وهذا تصور خاطئ، فالتصنيف والتأليف هو وسيلة تلقٍ أيضًا، ووسيلة لتمتين التأصيل العلمي لطالب العلم كما تمت الإشارة إليه في الشواهد السابقة.

وقد يقول البعض إن دعوة طلاب العلم للتصنيف والتأليف والبحث والنشر قد يدعو غير المؤهلين لتوريط أنفسهم، إضافة إلىٰ أن المكتبات تغص بدراسات غير مؤصلة.

والجواب أن هذا المحذور للأسف لم يعِق إلا المتميزين، ولم يلتزم بهذا التصور إلا طلاب العلم الجادّين، أما المتسورون علىٰ العلم وأصحاب «التأليف للتجارة»، فهؤلاء هم الذين قفزوا علىٰ هذا المحذور، ولذلك أصبح طالب العلم المؤهل اليوم يفر من التأليف والنشر، وغيرِ المؤهل يلقّم ماكينات المطابع . .

Twitter: @ketab_n

ودعنا نضرب مثلًا لفكرة عملية للتأليف بهدف التعلم: لو أن طالب علم أراد أن يدرس علم أصول الفقه -مثلًا- ويؤصل نفسه فيه، فلو حفظ متنًا معتمدًا، أو عمد إلىٰ القراءة والتأمل والاستظهار في كتاب مميز: كالمستصفىٰ، أو إحكام الآمدي، أو التحبير للمرداوي، أو البدر الطالع للمحلي؛ لحصل شيئًا جيدًا.

لكن لو أن هذا الطالب جعل تصنيفه تحصيلا وتحصيله تصنيفًا، فجعل له مشروعًا -مثلًا- في شرح مختصر التحرير لابن النجار، فيأخذ كل مسألة من مسائله، ويجعلها كالترجمة للباب أو العنوان، ويقرأ المصادر ويقارن ويوازن بينها في كل مسألة، ثم يكتب حصيلة تأمله في المصادر في شرح هذه الفقرة من المتن، لكان هذا الطالب إذا انتهىٰ من شرح الكتاب قد حصّل هدفين:

فالهدف الأول: أنه الآن قد وازن وتأمل مسائل أصول الفقه بالمقارنة بين المصادر فحققها وحررها ودقق فيها، وقد أثبتت التجربة أن (**مقارنة المصادر ينبوع التحقيق**). **والهدف الثاني** أنه يجد نفسه أمام مصنَّف قد انتهىٰ منه يحسن أن يدفعه لمن يراجعه من المختصين ويصححه وينقحه، ثم يستشيرهم في طباعته ونشره، فيجعله الله له -بإذن الله- من العمل الباقي بعد الموت.

وهكذا تعلم وصنّف في ذات الوقت، وكسر قلم النسخ وأخذ قلم التخريج، ولا أشك طرفة عين أن من تعلم أصول الفقه بهذه الطريقة فقد وصل لدرجة التحقيق في العلم، بخلاف من اكتفىٰ بالتعلم بطريقة حفظ متن أو استظهار كتاب متوسط، فالحافظ أو

Twitter: @ketab_n

المستظهر لا يدرك إلا قولًا واحدًا منقولًا، وأما من حقق وحرر فهو الذي يقف علىٰ أدغال العلم وأعماقه وأغواره، ويفرز الصور ويحرر الاستدلالات، وفي كلٍ خير.

والهدف من هذا الفصل تنشيط البحث والتأليف بين طلبة العلم المتميزين المتهيبين من التصنيف ظنًا منهم أنه مرحلة تكون بعد الانتهاء من طلب العلم، وغفلتهم عن كون التصنيف من وسائل التعلم، وهكذا سائر أوجه الإنتاج والعطاء، كتدريس العلم، والقضاء، والفتيا، والخطابة، ونحوها، فكلها وسائل تعلّم للشخص ذاته أولًا.

وأسأل الله أن نرىٰ ذلك اليوم الذي تلتهب فيه ساحتنا العلمية بالدراسات المتجاوبة فوريًا مع احتياجات المجتمع، بالتصنيف والتكميل والنقد والاعتراض والتلخيص والتقريب والتهذيب، وإنما يحيا العلم ويتنفس في مثل هذه المناخات الحيوية النشطة.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

القسم الثاني

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

لقاء العظيمين

تخيل معي أنه قد اجتمع اليوم أهم رمزين من رموز الفكر العربي . . أو أهم رجلين من رجال السياسة في عالمنا العربي . .

أو دع المقترح يكون أكثر مرونة . . ولنتخيل اجتماعًا انعقد اليوم يضم أهم شخصيتين في العالم الإسلامي . .

برأيك . . وفي تقديرك: ما الموضوع الذي تتوقع أن يفتح علىٰ طاولة الاجتماع؟

هل تتوقع -مثلًا- أن يكون الموضوع عن الحرية؟ أم ربما يكون موضوع الاجتماع عن النهضة والحضارة والتنمية؟ أم عن البطالة والإسكان؟ أم عن تطورات الإعلام؟ أم أزمة الاقتصاد؟

أم عن ماذا يا ترىٰ؟

ما أعظم ملف يمكن أن يليق باجتماع أهم شخصيتين فكريتين، أو أهم شخصيتين سياسيتين في العالم العربي أو الإسلامي؟

Twitter: @ketab_n

حملق في ذهني هذا السؤال المتخيّل بينما كنت أقرأ خبرًا موثوقًا عن اجتماع أهم شخصيتين في تاريخ العالم .. وأدهشني جدًا الموضوع الذي دار الحوار بينهما علىٰ أساسه ..

ربما يعود السبب إلىٰ أننا تعودنا علىٰ نمط معين من الأجندات والقضايا في الاجتماعات الهامة .. ولذلك اندهشت من موضوع هذا اللقاء بين أعظم شخصيتين في تاريخ البشرية ..

أو ربما يعود الأمر إلىٰ ذوق فكري معين تعودنا عليه في ترتيب القضايا المرتبطة بالشأن العام .. فصارت هرمية الأولويات الفكرية الخفية في أذهاننا تتحكم في مفكرة اجتماعاتنا رفيعة المستوىٰ ..

المهم .. أنني متأكد أن مزاج القارئ المعاصر يتحرك في مسار غير المسار الذي وصل إلىٰ مستواه هذان العظيمان في تاريخ النوع الإنساني ..

وبشكل خاص: فَهْمُ هذين العظيمين للقضايا المصيرية والحاسمة التي تستحق أن تنفق فيها الاجتماعات وتبذل فيها الأوقات ..

علىٰ أية حال .. أشعر أن صديقي القارئ الآن متشوف للاطلاع علىٰ قصة هذا الاجتماع لأهم رجلين مشيا علىٰ هذا الكوكب ..

لا بأس .. دعني أنقل لك الآن هذا الخبر التاريخي عن

Twitter: @ketab_n

اللقاء عالي الطبقة الذي ضم أهم شخصيتين إطلاقًا في أرشيف بني آدم . .

عفوًا . . أحببت أيضًا أن أؤكد أن مكان اللقاء هو أيضًا مكان متفرد . . موقع استثنائي . . يليق بعظمة هاتين الشخصيتين . . فقد تم تحديد مكان الاجتماع في منزل لا يصله أكثر الناس . . بل هو موقع خاص لفئة معينة من القادة والمؤثرين . .

أما الشخصيتان محل اللقاء . . فبدهي طبعًا أن أهم وأعظم وأجلّ شخصيتين في تاريخ النوع الإنساني كله هما:

إبراهيم بن آزر بن ناحور . . ومحمد بن عبد الله بن عبد المطلب . . صلىٰ الله عليهما وآلهما وسلم.

وكون هذين هما أفضل رجلين خلقهما الله، هذه حقيقة معروفة عند المسلمين . . خذ مثلًا قول ابن تيمية: **(وأفضل الخلق: محمد ﷺ، ثم إبراهيم صلىٰ الله عليهما وسلم)**[1].

وقال ابن تيمية أيضًا: **(فصلٌ: وأفضل الأنبياء بعد محمد ﷺ إبراهيم الخليل)**[2].

حسنًا . . لا شك أن محمد وإبراهيم الخليلين -صلىٰ الله عليهما وآلهما وسلم- هما أعظم شخصين في تاريخ البشرية . .

---

(١) ابن تيمية، **اقتضاء الصراط المستقيم**، تحقيق د. ناصر العقل، مكتبة الرشد، ص(٢/ ٨٣٣).

(٢) ابن تيمية، **مجموع الفتاوىٰ**، ص(٤/ ٣١٧).

Twitter: @ketab_n

فلننتقل الآن إلىٰ جوهر الموضوع:

متىٰ التقيا؟ واين كان موقع الاجتماع؟ وما موضوع الاجتماع الذي دار الحوار بينهما علىٰ أساسه؟

التقىٰ محمد بإبراهيم -صلىٰ الله عليهما وسلم- لما أسري برسول الله ثم عرج به إلىٰ السماء السابعة.

حيث جاء في صحيح البخاري في قصة الإسراء والمعراج:

(ثم مررت بإبراهيم فقال: مرحبا بالنبي الصالح والابن الصالح، قلت من هذا؟ قال: هذا إبراهيم)[1].

وجاء في بعض الروايات أن النبي ﷺ التقىٰ بإبراهيم، وإبراهيم مسند ظهره إلىٰ البيت المعمور، والله أعلم.

وأما الموضوع الذي دار بينهما .. والقضية التي فتحت في الاجتماع .. والرسالة الهامة التي أراد إبراهيم إيصالها لأمة محمد .. فقد رواها عن النبي ﷺ أربعة من الصحابة وهم ابن مسعود، وأبو أيوب الأنصاري، وعبد الله بن عمر، وابن عباس.

واستمع إلىٰ هذه الرواية التي رواها هؤلاء الصحابة عن قصة اجتماع أهم شخصيتين في العالم .. والموضوع الذي تركّز الاجتماع عليه:

(قال رسول الله ﷺ لقيت إبراهيم ليلة أسري بي، فقال:

---

(١) صحيح البخاري (٣٣٤٢).

Twitter: @ketab_n

يا محمد، أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر)[1].

والحديث حسنه الترمذي عقب تخريجه له، وحسّنه ابن حجر[2]، واستشهد بهذا الحديث ابن رجب وابن تيمية وابن القيم وغيرهم من أهل العلم كما سيأتي، ولبعض الأئمة المتقدمين كلام عن بعض طرقه[3].

حسنًا .. لا يمكن أن يمر القارئ بهذا الحادثة في اجتماع محمد وإبراهيم الخليلين -صلىٰ الله عليهما وسلم- في السماء ليلة الإسراء إلا وتستولي عليه الدهشة من هذا الأمر الذي اهتم به إبراهيم الخليل وطلب من نبينا محمد -صلىٰ الله عليهما وسلم- أن يوصله لنا ..

بمجرد أن يقرأ المسلم قول أبينا إبراهيم **(يا محمد أقرئ أمتك مني السلام)** فإنه يشعر بشيء من حنين الانتماء والصلة ..

إنه أبونا إبراهيم مهتم بنا .. ويوصل سلامه لنا عبر محمد صلىٰ الله عليهما وسلم ..

إنه أبونا إبراهيم يسلم علينا .. وهو أبونا بنص القرآن ﴿مِلَّةَ

---

(١) سنن الترمذي (٣٤٦٢)، مسند أحمد (٢٣٥٥٢)، وغيرهم.

(٢) ابن حجر، **نتائج الأفكار**، تحقيق حمدي السلفي، مكتبة ابن تيمية، ص(١/ ١٠١).

(٣) ابن أبي حاتم، **كتاب العلل**، أشرف علىٰ تحقيقه د.سعد الحميد، ص(٥/ ٣٠٩).

Twitter: @ketab_n

أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨] وفي معنىٰ الأبوة هاهنا أقوال ذكرها أهل التفسير . .

أيُّ إحساس بالأهمية والمكانة يشعر به المسلم وهو يقرأ أن إبراهيم خليل الله مهتم بالسلام عليه؟!

وثمة بعد آخر في منزلة هذه الوصية وهي أن إبراهيم الخليل ﷺ رجلٌ ارتحل الآن إلىٰ ربه . . وهو الآن أخبر ما يكون بأنفع شيء لمن لم يمت بعد . .

فتخيل أن رجلًا ذهب إلىٰ الله، ثم يرسل لك وصية بعد أن انتقل عن الدنيا؟ فكيف ستكون أهمية وصيته؟

فهذا إبراهيم أعلم الناس بالله بعد نبينا يرسل لنا وصيةً بعد موته وارتحاله عن هذه الدنيا . . إنها وصية قادمة من رجل سبقنا في الرحلة إلىٰ المستقبل الأبدي . . فكأنها وصية قادمة من المستقبل الذي سنؤول إليه . .

وماذا كانت هذه الوصية . . إنها الوصية بأمور تبني لك موقعًا في الجنة:

(يا محمد، أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر).

فإبراهيم الآن يتحدث عن الجنة حديث من غادر الدنيا . . ويخبر أن الجنة أرضها طيبة مباركة . . ومياهها عذبة حلوة . . .

Twitter: @ketab_n

وأن الله خلق فيها مساحات مستوية لا نبات فيها، فهي قيعان، لكي يغرس المؤمن فيها أشجاره بقوله: (سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر) . .

هذا إبراهيم الخليل الذي آل إلىٰ ربه يريد من محمد صلىٰ الله عليهما وسلم أن يخبرنا نحن بهذه المعلومة . .

إبراهيم يريد منا أن نستثمر الفرصة طالما أننا ما زلنا في هذه الدنيا فنستكثر من الغرس في الجنة قبل أن نقدم علىٰ الله!

تخيل أنك تقول الآن «سبحان الله» . . فتغرس لك شجرة في جنات عدن؟!

وتخيل أنك تدلّ صديقًا أو قريبًا علىٰ فضل «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر» . . فكلما قالها هذا الصديق أو القريب، غُرِست له شجرة في الجنة، وغُرست لك مثلها، كما في صحيح مسلم (**من دل علىٰ خير فله مثل أجر فاعله**)[1].

فربما كنت نائمًا أو تتناول طعامك أو منهمكًا في عمل . . والله يغرس لك في الجنة بسبب أقوامٍ دللتهم وذكّرتهم فتفطنوا للذكر . .

وقد بوّب علىٰ هذا الحديث العظيم الإمام ابن القيم في منظومته المتلاطمة (الكافية الشافية) المشهورة بالنونية فقال (**فصلٌ**

---

(١) صحيح مسلم (١٨٩٣).

Twitter: @ketab_n

في أن الجنة قيعان، وأن غراسها الكلام الطيب والعمل الصالح)، ونظم فيها ابن القيم تحت هذا الفصل أبياتًا مستمدة من هذا الحديث فقال:

(أو ما سمعت بأنها القيعان فاغْـ
ـرِس ما تشاء بذا الزمان الفاني
وغراسها التسبيح، والتكبير، والتـ
ـحميد، والتوحيدُ للرحمنِ
تبًّا لتاركِ غرْسِه ماذا الذي
قد فاته من مدة الإمكان
يا من يقر بذا ولا يسعىٰ له
بالله قل لي كيف يجتمعان؟
أرأيت لو عطلت أرضك من غرا
سٍ ما الذي تجني من البستان؟)[1]

وجعل ابن القيم هذا الحديث دليلًا لأحد فوائد الذكر . . كما يقول ابن القيم في كتابه الوابل الصيب في فوائد الذكر: **(الفائدة الثانية والثلاثون: أن الذكر غراس الجنة)**[2].

ومن أطرف النظرات والتأملات في هذا الحديث العجيب أن

---

(١) ابن القيم، **الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية**، تحقيق عبد الله العمير، دار ابن خزيمة، ص(٣٩٥)

(٢) ابن القيم، **الوابل الصيب**، تحقيق عبد الرحمن قائد، نشرة مجمع الفقه، ص(١٠١).

Twitter: @ketab_n

الإمام **النووي** (ت٦٧٦هـ) اعتبر أنه صارت لأهل الحديث رواية متصلة السند إلىٰ النبي إبراهيم . . فإن أهل الحديث يروون هذا الحديث عن الصحابة، والصحابة يروونه عن نبينا محمد ﷺ، ومحمد يرويه عن إبراهيم الخليل!

كما يعبّر النووي عن هذه النظرة بقوله:

(وقد منّ الله الكريم علينا وجعل لنا رواية متصلة، وسببًا متعلقًا بخليله إبراهيم -عليه السلام- كما منّ علينا بذلك في حبيبه وخليله وصفيّه محمد ﷺ)[1].

ثم ساق النووي بإسناده هذا الحديث السابق مرورًا بالترمذي.

والحقيقة أن التركيز في النظر إلىٰ هذا المعطىٰ، أي كون هذه الوصية من خليل الله إبراهيم لم يكن غائبًا عن كثير من أهل العلم . . حتىٰ أن الإمام ابن رجب يقول:

(وصلت إليكم معشر الأمة رسالةٌ من أبيكم إبراهيم، مع نبيكم محمد -عليهما السلام- قال رسول الله ﷺ: «رأيت ليلة أسري بي إبراهيم فقال: يا محمد أقرئ أمتك السلام وأخبرهم: أن الجنة عذبة الماء، طيبة التربة، وأنها قيعان، وأن غراسها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»)[2].

فلعلك قد لاحظت أن النووي وابن رجب سلّطا الانتباه علىٰ

---

(١) النووي، **تهذيب الأسماء واللغات**، إدارة الطباعة المنيرية، ص(١/ ١٠٠).

(٢) ابن رجب، **لطائف المعارف**، تحقيق ياسين السواس، دار ابن كثير، ص(١٢٠).

Twitter: @ketab_n

كون هذه الرسالة والوصية قادمةٌ إلينا من أبينا إبراهيم الخليل، وينقلها عنه محمد صلىٰ الله عليهما وسلم . . والمستهدف في هذه الوصية . . والمرسل إليه في هذه الرسالة هو نحن . . أيُّ اهتمام بنا بذله هذان النبيّان الكريمان علىٰ الله . .

هل تتوقع لو اجتمع اليوم اثنان من المفكرين العرب أن يكون اجتماعهم معنيًا بقضية (ذكر الله) كما اهتم بها أعظم رجلين في تاريخ البشرية في اجتماعهما في السماء السابعة؟!

لا أظن ذلك . . ويبهجني أن أكون مخطئًا.

النهضة والتقدم والتطور والرقي في ميزان الأنبياء تختلف كثيرًا عن الموازين المادية المعاصرة . .

Twitter: @ketab_n